سورة القارعة

مكية وهي اثنتا عشرة آية مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية بلا خلاف (فتح البيان). والمستشرقون الغربيون أيضًا يتّفقون على ذلك، حيث اعتبرها المستشرق الألماني "نولدكه" والسير "وليام موير" من أوائل السور المكية. (تفسير القرآن لـــ"ويري")

الترتيب والترابط:

إن السورة السابقة تتحدث عن رقي النبي ﷺ وغلبته المتعلقة في زمن بعثته، أما هذه السورة فتتحدث عن رقي دينه ﷺ في الزمن الأخير حين تأتي على الإسلام أيام المحن والمصائب.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٤﴾

شرح الكلمات:

القارِعَةُ: قرَع البابَ قَرْعًا: دَقَّه. وقرَع الشيءَ: ضرَبه. وقرَع صفاتِه: تنقّصَه وعابه. وقرَع السهمُ القرطاسَ: أصابه. وقرَع زيدًا أمرٌ: أتاه فجأة. (الأقرب)

ومن معاني القرْع: الصوتُ الشديد –وهذا المعنى لم يرد في القواميس بل ورد في التفاسير– حيث قال المفسرون القارعة هي القيامةُ، وقد سُميت قارعةً لصوت

إسرافيل الذي سينفخ في الصور فيموت جميع الخلائق. (فتح البيان، وروح المعاني، وابن كثير)

وقد ورد في أقرب الموارد: القارعةُ: القيامة، لأنها تقرع بالأهوال؛ الداهيةُ؛ النكبةُ المهلكةُ؛ سريّةٌ (جيش صغير) لنبي المسلمين."

التفسير: لقد ورد لفظ "القارعة" في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم: في سورة الرعد والحاقة وهذه السورة.

قال الله تعالى في سورة الرعد ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(الرعد:٣٢). والمراد من القارعة هنا الجيوش الإسلامية التي سوف تشنّ الغارات على أعداء الإسلام باستمرار. ولما كان من الوارد أن تساور البعض شبهة أن هجمات الإسلام تكون عدوانيةً فردّ الله على هذه الشبهة هنا فقال ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾.. أي أن هذه الهجمات لن تكون عدوانًا من قبل المسلمين، بل ردًّا على اعتداءات الكافرين، وعندما يردّ عليهم المسلمون بهجمات مضادة سيخمد شرّهم ويضعفون شيئا فشيئا، ويتقوى الإسلام باستمرار إلى أن تصل جيوشه مكةَ وتفتحها.

والموضع الثاني الذي وردت فيه كلمة القارعة هو قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(الحاقة:٥-٧). لقد ذكر الله تعالى هنا نوعين من العذاب ووصف كلا النوعين بالقارعة، مما يعني أن القارعة تعني هنا الداهية والنكبة المهلكة، حيث أخبر الله تعالى أن الأنبياء الذين بعثوا إلى أمة ثمود وأمة عاد نصحوهم أن ينتهوا عن كفرهم كيلا يقعوا في المصائب، لكنهم لم يبالوا بتحذيرهم ورفضوا قولهم. فأخبرهم أنبياؤهم أن العذاب سيحلّ بهم الآن ويُدَمّرون، ولكنهم لم يرتدعوا ولم يصلحوا حالهم، بل ضحكوا عليهم أكثر، فعاقب الله تعالى ثمود بزلزال هائل دمرهم

كلية، وأما عاد فأهلكهم بريح شديدة. وبالفعل قد عثر علماء الآثار لدى حفر أراضي هذه الشعوب على مدن كبيرة مدفونة تحت الرمال.

أما لفظ القارعة التي نحن بصدد تفسيرها فيعني النكبة المهلكة.

إن التدبر في هذه الآيات يكشف أن القارعة عذاب يحل بقوم آيةً على صدق النبي، سواء حلّ بهم على يد النبي أو أتباعه أو أنزله الله تعالى مباشرة بدون واسطة إنسان. ومثال حلول العذاب على يد النبي أو أتباعه ما ذكره الله في سورة الرعد ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾، حيث تعني القارعة هنا السرايا التي كان النبي ﷺ يجهّزها ويبعثها. ومثال العذاب الذي يأتي به مباشرة بدون واسطة هلاكُ ثمود بزلزال، فكان أمرًا ربانيا مباشرا لا دخل فيه لأي إنسان، وهلاكُ عاد بريح صرصر عاتية... فهذا أيضا كان أمرا ربانيا مباشرا، إذ لا يقدر إنسان على إبادة أحد بالريح. وقد سميت هذه الأنواع من العذاب قارعةً لأن من معاني القرع دَقَّ البابِ ونَقْرَه. فحين يرفض الناس صوت المبعوث الرباني بسبب نومهم الروحاني العميق يرسل الله عذابه ليقرع عليهم أبوابهم ليستيقظوا، وهذه القرعات توقظهم من سباتهم الروحاني فيستجيبون لصوت الرسول في نهاية المطاف.

باختصار، إن القارعة عذاب يأتي تصديقًا للنبيّ. يقول الله تعالى هنا: ﴿القارعة﴾.. أي سوف تحلّ بالدنيا نكبةٌ تقرع على أهلها أبوابهم.

ثم قال ﴿ما القارعة﴾. و ﴿ما﴾ هنا تفيد التفخيم والتعظيم، أي أن الإنسان لا يستطيع أن يعلم حقيقة هذه النكبة.

وقد كرر الله هنا لفظ القارعة قائلا: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ﴾ تهويلاً لهذه النكبة، وفي لغتنا -الأردية-أيضا يكررون الكلام تهويلاً. فكأن الله تعالى يخبر هنا أن المصيبة التي نتحدث عنها ليست عادية، بل هائلة جدًا. إن كلمة القارعة بحد ذاتها تدل على الصوت المخيف والدمار الهائل، ومع ذلك كررها الله تعالى بدلاً من استعمال ضميرها فقال ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾، ليبين أن النكبة الآتية تحير الإنسان من شدة هولها، حتى إن لفظ القارعة وحده لا يبين أهوالها بشكل كامل. والحكمة في إعادة كلمة ﴿القارعة﴾ نفسها بدلاً من الضمير أنه لو أُتِيَ بضميرها لغابت ﴿القارعة﴾

نفسها عن الأنظار. فمثلا لو قلت: "جاء زيد فقلتُ له"، فالضمير (له) ليس بنفس قوة كلمة (زيد). لا شك أنه ليس هناك فرق من حيث المفهوم بين أن تقول: جاء زيد فقلت له، وبين أن تقول: جاء زيد فقلت لزيد، لكن تكرار كلمة (زيد) فيه وَقْعٌ لا يوجد في الضمير (له). فكرر الله تعالى كلمة ﴿القارعة﴾ بدل أن يأتي بالضمير لبيان أن هذه القارعة أمر عظيم لا يمكن أن يغيب عن أنظار الناس. إن الضمير يأتي للشيء الغائب، ولكن تلك المصيبة هائلة لدرجة أن الإنسان لا يقول ما هي، لأن قوله هذا يعني أنها غابت عن ذهنه، إنها ستظل ماثلة في الأذهان بحيث يقول الإنسان ما القارعة، فتكرار كلمة القارعة إشارة إلى أنكم لن تنسوا تلك المصيبة الهائلة.

باختصار، إن الله تعالى قد قام بتفخيم تلك النكبة بطريقين:

أولا: بالسؤال عنها بـــ (ما) الاستفهامية. ثانيًا: بتكرار كلمة ﴿القارعة﴾ بدلاً من ضميرها. وكأن الإنسان يقول في حيرة: لا أفهم ما هذا الشيء، ثم يقول إنه أمر مهيب لا يغيب عن الأنظار، لأنه حين تحل مصيبة عظمى في الدنيا يقول الناس إنها لا تزال ماثلة أمام أعيننا كل حين، و لم نستطع نسيانها.

ثم قال الله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.. وهنا أشار إلى هول تلك المصيبة مرةً ثالثة، وأخبر أنه حادث هائل يستحيل على عقل الإنسان استيعابه؛ إذ لا تقدر المفردات على التعبير عنه.

هذا البيان يماثل قول الرسول ﷺ في وصف الجنة: "مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ" (البخاري، التفسير، سورة السجدة)، وقد أشار الله تعالى إلى المعنى نفسه في القرآن الكريم بقوله ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(السجدة:١٨). ورغم أن الله تعالى قد وصف الجنة بالتفصيل في آيات القرآن بكثرة، فقال إن فيها أنهارا وبساتين وأنواع الأكل والشرب، ومع ذلك فالجنة لا يمكن تخيُّلُها، وإنما جاءت هذه الأوصاف لتقرِّب مفهوم الجنة إلى أفهامنا، لكي يتيسر لنا إدراكٌ بنعمائها ولو كان إدراكًا بسيطًا، وإلا فليس المراد أن في الجنة نفس اللبن والماء والعنب والرمان والموز التي نجدها في الدنيا. فلما خاف النبي ﷺ

أن يفهم الناس من أوصاف الجنة في القرآن الكريم أن فيها أنهارًا وبساتين وأثمارًا وأزهارا كالتي نراها في الدنيا قال: لا أستطيع وصف نعماء الجنة؟ فإن فيها "مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ".. أي لا تظنوا بما تقرأونه أو تسمعونه من وصف الجنة في القرآن أو الكتب القديمة أنكم أدركتم حقيقتها ونعمائِها. كلا، هذا محال. ثم قال ﷺ: "وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"، ذلك أن الإنسان قد لا يستطيع إدراك كنه الشيء برؤيته ولا بسماع وصفه، ولكنه يدركه بسمو خياله، لأن طيران الأفكار أقوى وأرفع حتى يصل الإنسان في أفكاره إلى الشمس والقمر، فهكذا يجعل الخيالُ المحالَ ممكنا له، ولكن الرسول ﷺ أوضح أنّ سموّ فكر الإنسان أيضا لا يمكن أن يساعده في إدراك كنه الجنة، فمهما حاولت قوته المتخيلة رسمَ الجنةَ له فهي تفشل في رسمها، ومن المحال أن يدرك كنْهَها بسموّ فكره.

فكما أن الرسول ﷺ قد بيّن لنا ماهية الجنة بثلاث جمل، كذلك قد بين القرآن الكريم عظمة "القارعة" هنا بثلاث جمل، فقال أولاً: ﴿الْقَارِعَةُ﴾، فعرّفها بأداة التعريف ليشير إلى كمالها، بمعنى أنها صوت شديد أو مصيبة هائلة جدًّا جدًّا. ثم قال ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾، وهذا أيضا تفخيم لشأنها. ثم أردفه بقوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.. أي لم تتضح لكم عظمتها كما ينبغي، إذ هي أعظم من أن تدركوا حقيقتها بالكلمات فقط، فلذلك لن تدركوها اليوم.

والبديهي أن الإنسان إذا لم يدرك كُنْهَ شيء أو فَشِلَ في تقدير عظمته وهوله وَصَفَه بلغة التمثيل والمجاز، أو ذَكَر بعض نتائجه للآخرين. فمثلاً إذا رأى المرء مشهدًا عظيما رائعا لا يُرى إلا بالقوة الروحانية، وصَفه للآخرين بلغة المجاز والاستعارة، أو بذكر بعض تأثيره ونتائجه. وخذوا مثلا الله ﷻ، فإنه لا يُرى بالعيون المادية، إذ ورد أن عائشة رضي الله عنها سألت النبيَّ ﷺ مرة: هل رأيتَ ربك؟ فقال: نورٌ أنّى أراه؟" (مسلم: كتاب الايمان). فرؤية الله تعالى بالعيون المادية أو القوى الجسدية محال باليقين، ولكن لا يمكن إنكار رؤية البارئ أيضًا، لأن أحباء الله تعالى يرونه، ولكن رؤيته هذه تكون من خلال مشهد تمثيلي، كما قال الرسول ﷺ رأيت ربي في صورة شاب (كنـــز العمال، كتاب الإيمان)، أو من خلال صفاته

تعالى.. أي مِن خلال التدبر في صفاته ﷻ، فعندما نتدبر في صفته "الرب" نرى وجوده ﷻ قريبًا منا، وعندما نتدبر في صفاته الرحمن والرحيم ومالك يوم الدين نراه ﷻ تعالى أقربَ إلينا أكثر فأكثر. والمراد من رؤية صفاته تعالى رؤية نتائجها، فحينما نرى في الدنيا مشاهد مختلفة لربوبية الله نرى إلهًا ربًّا أمام أعيننا، عندما نرى مشاهد رحمانية الله تعالى نرى إلهًا رحمانًا أمام أعيننا، وحين نشاهد مشاهد رحيمية الله تعالى نرى إلهًا رحيمًا أمام أعيننا، وحينما نرى مشاهد مالكية الله تعالى نرى أمامنا إلهًا مالكًا ليوم الدين. ومع ذلك كله يظل تصورنا عن الله تعالى ناقصًا. هذه هي رؤية الله التي تتيسر للمؤمنين. وعندما يرتقي المؤمن من هذا المقام تنـــزل أنوار الله تعالى على قلبه، فيُشحن بقوى روحانية جديدة وبحماس جديد وبمحبة جديدة. وعندما يرتقي أكثر ينـــزل عليه كلام الله تعالى، فهكذا لا يزال المؤمن يرتقي درجة فدرجة وينال مقامًا فوق مقام من رؤية الله تعالى. لكنه مهما ارتقى فلن يبلغ المقام الذي بلغه الرسول ﷺ. وما دام الرسول ﷺ نفسه يقول عن رؤية البارئ تعالى: "نورٌ أنّى أراه"، فمن ذا الذي يمكنه أن يقول –مهما بلغ من المقام الروحاني– إنه رأى الله تعالى فعلاً؟ كل ما يشاهده إنما هو تجلٍّ لصفاته تعالى، ويكون هذا التجلّي بحسب درجته الروحانية. لقد تجلّى الله على عيسى بن مريم بأنْ نزَلَ عليه روح القدس في صورة حمامة وبلّغه كلام الله (مرقس ١: ١٠)، بينما تجلى الله على الأنبياء الآخرين بصورة نار، أو بصورة إنسان كامل، أو من خلال بعض صفاته أو تجلى بانعكاسه على قلبه. بيد أن الإنسان لن يراه إلا بقدر ما نال قلبه من الأنوار السماوية، ولا بد –في كل حال– من بيان تمثيلي لوصف رؤية الله.

باختصار، كلّ ما يستحيل على الإنسان إدراكُ كنهه، فإنما يُدرَك بوصف نتائجه أو بوصفه مجازًا وتمثيلا، ولذلك قال الله تعالى هنا أولاً إنكم لن تدركوا كُنْه هذه القارعة قبل وقوعها، ثم ذكر بعض نتائجها تقريبًا لأهوالها إلى أفهام الناس، فقال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.. أي ما الذي يمكن أن يبين لكم حقيقة القارعة، أي لن تستوعب قوتكم الخيالية حقيقة القارعة مِن خلال بياننا هذا، لذلك نذكر لكم بعض نتائجها لتدركوا من عظمتها وهيبتها شيئا.

يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝

شرح الكلمات:

الفَراش: جمعُ الفراشة، وهي حيوان ذو جناحين يطير ويتهافت على السراج فيحترق؛ غوغاءُ الجراد. (الأقرب)

فلأن الجراد يطير أسرابًا فيها ملايين الملايين منه، فتحدث صوتًا في الجوّ، فغوغاؤها أيضا يسمى فَراشا. وبعض المفسرين من اللغويين قد فسروا الفراش بمعنى الجراد.

وورد أيضًا: الفَراشُ ما يبس بعد الماء من الطين على الأرض؛ والفَراشُ من النبيذ: الحَبَبُ الذي يبقى عليه. (الأقرب)

المبثوث: بَثَّ الخبرَ بثًّا، وبثّثَه وأبثّه: نشَره وأذاعه، ومنه: بَثُّوا الخيلَ في الغارة، وبثَّ كلابَه على الصيد، وخلق الله الخلق فبثَّهم في الأرض. وبثَّ الغبارَ: هيَّجه (الأقرب). ومنه في القرآن الكريم ﴿هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ بمعنى نشره وإذاعته.

التفسير: ونظرًا إلى المعاني المذكورة آنفًا، سيعني قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أن الناس يكونون يومَها كالفراش المشتّتة. الفراشة تكون في حالتين، إحداهما حين تكون أمام السراج، والأخرى حينما لا يكون هناك سراج. فإذا كان الضوء أمامها توجهت كلها إليه، ولكن إذا انطفأ السراج تشتّتت وتوجَّهَت يَمْنة ويسرة. وفي أيام المطر لا تخرج الفراشات الصغيرة، ولا الكبيرة أيضا. ويرجع علماء الحيوان ذلك إلى أن الفراشات تعيش في باطن الأرض، وفي أيام المطر تتمنى أن تخرج منها، وعندما تخرج وترى الضوءَ تعتبره ثقبًا وراءه عالَمٌ آخر، فتندفع نحوه وتتهافت عليه ظنًا منها أنه لا يزال أمامها مسرح للتمتع بالحرية. وأيا كان السبب فإنها تجتمع حول السراج المضيء، وإذا أطفأتَه تفرقت وتشتتت. وعليه فقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ يعني أن الناس يومها يكونون متفرقين ومشتّتين تائهين هنا وهناك كأنهم الفراش الذي يكون بدون

ضوء، فلا يرون ضوءاً ولا يجدون مَخْلصا من مصائبهم، ويصبحون حيارى من أمرهم. فالآية ترسم ذروة عجزِهم وقلةِ حيلتهم.

ومن معاني الفراش: الجرادُ، فعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أنهم سيكونون كالجراد المشتَّت. لقد بيّنتُ عند الحديث عن القارعة أن أئمة اللغة الذين يفسرون القرآن أيضا يقولون إن من معاني القرع: الصوت الشديد (فتح البيان). وقد ركّزت على هذا المعنى لأنه ذو علاقة بالآيات التالية. لقد بين الله تعالى هنا أن الناس سيصبحون يومئذ كالجراد المشتت، ونرى أن أكبرَ وسيلة لتخويف الجراد وتشتيته هو الصوت. يقال إن الجراد ضعيف البصر، ولكنه قوي السمع، فإذا خُوِّف بصوت قوي أخَذ يطير بشدة. والعادة في المدن والقرى أنه عندما تأتي أسراب الجراد وتقع على الزروع لتأكلها، يدقّون الطبول وما شابهها فتأخذ في الطيران ثانية. كذلك من التدابير التي تتخذها الحكومات عند هجوم أسراب الجراد على الزروع أنهم يحفرون في طريقها خنادق يقف العمال بالمعاول والسلات بجانبها، ثم يطيِّرون الجراد بالطبول وغيرها في تلك الناحية، ولكنها لا تستطيع الطيران طويلاً، فتسقط في الخنادق، فيدفنها العمال فيها. كما أنهم يشردّونها بتفجير القنابل في هذه الأيام، لأن صوتها الهائل يخيفها فتطير وتسقط في الخنادق حيث تُدفن.

فقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ يعني أنه عندما تقع القارعةُ -أي الصوتُ الشديد الهائل - فإن الناس يتشتتون تاركين كل شيء، ويفرون هنا وهناك لا يجدوا لهم مخلصًا ولا مهربًا، شأن أسراب الجراد التي حين تُشرَّد بصوت الطبول أو القنابل، يصيبها الهول فتنسى أكل الزرع والشجر، وتهرب من مكان اجتماعها.

ومن معاني الفراش ما يبس بعد الماء من الطين على الأرض، كما يقال بثَّ الغبارَ: هيّجه، وعليه سيكون المراد من قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أن القارعة ستطيِّر الناس كما يُطيَّر الغبار. ذلك أن قِطَعَ الطين اليابس التي تتكون بعد جفاف الماء لا تكون قويّة -وإنْ بدتْ قويةً- لأنها تكون صغيرة

الحجم، وإذا جرى عليها الحصان تمزقت وصارت غبارا. كذلك يخبر الله تعالى هنا أن القارعة ستجعلهم مثل الغبار المطيَّر.

ومن معاني هذه الآية أن هذه المصيبة ستمزقهم فتجعلهم كالفَراش الصغير الخفيف الطائر في الجوّ.. أي أن تلك القارعة تكون شديدة جدًا حتى تمزق الناس إربًا.. فتطيِّرهم في الهواء كالفراشات، ولن يُعرف مصيرهم، ولن تبقى صورهم كصور الناس، بل يصبحون كالفراشات الصغيرة الطائرة في الجو.

وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

العِهْن: الصوف أو المصبوغ ألوانًا. (الأقرب)

المَنْفوش: نفَش الصوفَ وغيره ينفُشُه نفْشًا: إذا مَدَّه حتى يتجوّف (لسان العرب). ونفَش القطنَ والصوف نفشًا: شعَّثه بالأصابع حتى ينتشر. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ يعني: ستكون الجبال كالصوف الممدود المجوَّف.

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا مواصفات أخرى لهذا العذاب. لقد بيَّن الله تعالى من قبل أن هذا العذاب يكون شديدا حتى إذا كان الناس مجتمعين في صورة جيش مثلاً تفرّقوا مدركين أن في اجتماعهم خطرًا، وإذا كانوا يقيمون في المدن فيخرجون من بيوتهم إلى البراري من التأثير المهيب لهذا العذاب، ويرون أن لا مناص لهم إلا أن ينتشروا ويتفرقوا، ومن ناحية ثانية تكون هذه المصيبة شديدة بحيث تصيب الناس بالعمى، فيتيهون هنا وهناك من دون أن يهتدوا سبيلا، مثل الفراشات التي تطير هنا وهناك من دون أن تعرف لها سبيلا، أو أن هذه المصيبة تكون شديدة بحيث تمزّق الناس إربًا فتطير لحومهم في الهواء كأنها فراشات طائرة. أما الآن فأخبر الله تعالى أن بعضهم إذا هربوا إلى الجبال ظنًّا منهم أنهم سيكونون في

مأمن هناك، فلن يجديهم هذا شيئًا لأن العذاب يكون شديدا لدرجة أنه يجعل الجبال كالقطن الممدود المشعَّث.

كنت أظن من قبل أن هذه الآيات تشير إلى شتى المخترعات الحربية المدمرة التي تُستعمل عادةً في هذا العصر مثل المدافع وغيرها، ولكني فهمتُ الآن أن القارعة هي القنبلة الذرية، لأن مواصفات هذا العذاب تنطبق كليةً على الدمار الذي تخلّفه القنبلة الذرية. إنها مدمرة لدرجة أن لا مناص منها للناس إلا أن يتشتتوا وينتشروا. إنها تحرق كل شيء من إنسان وحيوان ونبات وما إلى ذلك في مدى سبعة أميال، بل إن البحوث الجديدة تؤكد أنها تدمر كل شيء في مدى أربعين ميلا. عندما أُلقيت القنبلة الذرية على هيروشيما ذكرت الإذاعة اليابانية أنها خلّفت دمارا هائلا حتى وُجدت قِطع لحوم الجثث البشرية على بعد أميال وأميال. وهذا هو الوصف المذكور في هذه الآيات القرآنية حيث لن تسلم جثة الإنسان أيضا، بل إن عظامه ولحمه تتمزق إربًا وتطير في الجو كالفراشات. والحال نفسه يكون للجبال. إنهم لم يقوموا بتجربة نسف الجبال بالقنبلة الذرية بعد، ولكن يقال إنها ستتطور بحيث لن تسلم من دمارها الجبال. فيما يتعلق بمدى دمارها فإنها لا تبقي ولا تذر أيَّ شيء لأميال وأميال، وفيما يتعلق بحجم دمارها فلم يكمل العلماء بحوثهم بعد، ولكنهم يأملون أنهم سيطوّرونها حتى تنسف الجبال والقلاع في لمح البصر.

وقد فُسرت القارعة بمعنى القيامة، وهي نفس الكلمة التي لا يزالون يرددونها حتى اليوم بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكي، فيقولون إذا لم يرتدع الناس عن الحرب فستقوم القيامة. وقد قال البعض إن هذه القنبلة ستمحو وجود الإنسان نفسه من على وجه الأرض، بينما يرى البعض أنها لن تمحو وجود الإنسان ولكن من المؤكد أنه لن تُبْقي أثرًا للحضارة الحالية، لأنها ستدمر المدن والقرى، والقلة من الناس الذين سيبقون بعد الدمار الذري سيعيشون في الغابات. ويرى البعض أنه إذا استُعملت القنبلة الذرية بلا هوادة فسوف يشمل الأرض دمار لن يعرف الباقون من الجنس البشري بسببه كيف يُشعلون عود الثقاب، إذ تُدمَّر المصانع ويهلك العلماء وينسى الناس تقاليدَهم السابقة لكي يزول عنهم تأثير

أحزانهم، فيعود الناس مرة أخرى إلى استعمال الزند، وسوف يعود الإنسان إلى نفس الفترة البدائية من حضارته ثانية، وسوف يضطر الناس للبدء في شتى المخترعات من جديد، وسوف يخترع عود ثقاب بعد زمن طويل.

إذن، لقد بدأ الناس يصوّرون أهوال دمار القنبلة الذرية بحيث يبدو أن قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ يتحدث عن القنبلة الذرية فعلاً. فأيُّ دمار يكون أشدَّ فتكًا وهولاً من دمار القنبلة الذرية التي دفعت دولةً قوية لا يزال عندها تسعة ملايين جندي إلى الاستسلام أمام الحلفاء حين ألقوا عليها قنبلتين ذريتين فقط.

ومن معاني الجبل سيد القوم (الأقرب)، وعليه فيعني قوله تعالى ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أن كبار القوم وأسيادهم يصبحون كالقطن المشعَّث، بمعنى أنهم سيفقدون قوتهم وسلطتهم، ويصبحون بلا حول ولا قوة. والواضح أن عظمة كبار القوم تكمن في كفاءتهم الإدارية، لكن لا قِبلَ للتدبير والإدارة أمام دمار هذه الأسلحة الفتاكة الخطيرة، فلا بد أن يفقدوا عظمتهم وأهميتهم.

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٧﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٨﴾
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ﴿٩﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿١٠﴾

شرح الكلمات:

موازين: جمعُ ميزان: آلةٌ ذات كفّتين يُوزَن بها الشيء ويُعرَف مقداره من الثقل؛ العدلُ؛ المقدارُ. (الأقرب)

أُمُّهُ: الأُمّ الوالدة، وأُمُّ الشيء أصلُه، وأُمُّ الدماغ أو أُمُّ الرأس: الجِلدة التي تجمَع الدماغَ؛ وأُمُّ أربعٍ وأربعين: دُويبة سامة. (الأقرب)

هاوية: هَوَى الرجلُ: ماتَ. وهوى الشيءُ: سقَط مِن علوٍّ إلى أسفلَ. والهاوية: الثاكلةُ؛ مِن أسماء جهنم (الأقرب).

"فأمه هاوية" يعني أن أُمَّه أو أصلَه ساقطةٌ إلى الأسفل، وبتعبير آخر إن أُمّه الانحطاط والزوال.. أي أن فيه بذرة الانحطاط فلا يزال يسقط وينحطّ.

التفسير: لقد وردت في القرآن كلمة الميزان والموازين أيضا، حيث ذكر الميزان بالنسبة إلى الله تعالى والموازين بالنسبة إلى العباد. ذلك لأن في العالم موازين كثيرة، فالملايين يزنون للآخرين والملايين يوزن لهم، أما يومَ القيامة.. حين تظهر نتائج أعمال الناس.. فلا يكون هناك إلا واحد بيده الميزان، بينما يكثُر الذين يوزن لهم. وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة في القرآن الكريم بكلمات أخرى أيضًا إذ قال ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.. أي في ذلك اليوم لن يكون أحد من البشر مالكًا، بل يتجلى الله وحده بمالكيته الكاملة عندها. فحيث إن العباد الذين توزَن لهم أعمالهم كثرٌ، فاستعمل الله تعالى لهم كلمة الموازين في القرآن، وحيث إن الوازن واحد يوم القيامة فاستعمل الله لنفسه لفظ الميزان فقط.

وليكن معلومًا أنه حيثما وردت كلمة "القارعة" في القرآن دلت على النتيجة التي يأتي بها الله بشكل خاص في زمن أنبيائه، مما يعني أن القارعة ليست عذابًا عاديا، إنما يراد بها ذلك العذاب الخاص الذي يحلّ للدلالة على صدق الأنبياء، سواء مباشرة أو غير مباشرة، والذي يرى الناسُ وراءه يدَ الله تتحرك، وقوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ جاء للإشارة إلى نتائج هذه القارعة، إذ هي عذاب تُرى وراءه يدُ مشيئة الله تعالى. فكما أن الله تعالى قد نسب إلى نفسه هجماتِ الصحابة على الكفار، وعذابَ "الطاغية" التي أهلكتْ ثمود، وعذابَ "ريح صرصر" التي دمّرتْ عادًا، لكون هذه العذابات كلها قد جاءت بمشيئة الله وإرادته الخاصة، كذلك ينسب الله تعالى هنا نتائج هذه القارعة إلى نفسه، لأنها جاءت طبق النبوءات الإلهية. لقد أخبر الله تعالى المسيح الموعود عليه السلام سلفًا في وحيه ما تعريبه:

"ستظهر آيات كثيرة، وستُدمّر بيوت العديد من الأعداء، وسوف يرحلون من الدنيا. ستبعث رؤية تلك المدن على البكاء، وستكون تلك أيام القيامة. وسوف يتمّ الرقيّ بالآيات القاهرة". (التذكرة ص ٦٠٧-٦٠٨)

فلأن الله تعالى قد أخبر عن هذه العذابات في وحيه سلفًا، فعذاب القنبلة الذرية يُنسب إلى الله تعالى وإن كان من اختراع العباد.. تمامًا كما أن الله تعالى عذَّب الكفار بأيدي الصحابة، لكن القرآن قد سماه القارعة، وذلك لأن ذلك العذاب قد حلَّ بالكافرين بحسب الخطة الإلهية. باختصار، إن البلاء الذي لا يأتي صدفةً، بل يقع بحسب خطة ربانية أو نبوءة إلهية يسمى قارعةً للتدليل على أن نتائج هذا العذاب إنما تظهر بحسب المشيئة الإلهية.

لقد أخبر الله تعالى هنا أن الأمة التي تكون كفّتها راجحةً ستعيش في بحبوحة عيش ورخاء، أما الأمة التي تكون كفتها خفيفةً فسوف تهلك. وهذا ما يقوله الحلفاء اليوم بأننا قد انتصرنا لأن كفتنا كانت راجحة، بينما تقول قوات المحور بأننا انهزمنا لأن كفتنا كانت خفيفة.

ومن معاني رجاحة الكفة أن الذين تكون سفنهم أثقل وزنًا هم سينتصرون. وهذا التعبير شائع بكثرة في هذا الزمن، حيث تقول الحكومات في إعلاناتها دائما أن زنة سفننا كذا وكذا من الأطنان، أو أننا ألقينا على العدو قنابل تزن كذا وكذا من الأطنان. فالله تعالى أيضًا يخبر هنا أن الذين يكونون أكثر زنةً أو أكثر عتادًا فهم في عيشة راضية، أما الذين تكون زنتهم أقل فسيُلقَون في الهاوية. وهذا كما قال الإمبراطور الياباني إن أكبر أسباب هزيمتنا قلّة عتادنا. وهذا ما قاله هتلر أيضا. مما يعني أن الحروب في هذا العصر لا تُكسَب بالشجاعة والقوة الجسدية، بل مدار الحروب اليوم هو على كثرة العتاد، فمن زادت زنته انتصر، ومن خفت زنته انهزم.

ويتضح من القرآن الكريم أن كلمات ﴿مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ تُستعمل لمن كانت حسناته أكثر، وكلمات ﴿مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ تُستعمل لمن كانت حسناته أقل، وعليه فالمفهوم الثاني لهذه الآية أن الذين كثرت حسناتهم ينتصرون وأن الذين قلت حسناتهم ينهزمون. وهذا يعني أن النتيجة ستظهر بطريقين: فعند المواجهة المادية

ينتصر الذين هم أكثرُ عتادًا ماديًا، وينهزم الذين هم أقل عتادا ماديا، أما عند المواجهة الروحانية فسينتصر الذين تستحق أعمالهم أن تسمى أعمالاً روحانية، وينهزم الذين لا تستحق أعمالهم أن تسمى روحانية. فالانتصار الأول مداره المادية، والانتصار الثاني مداره الروحانية.

لقد ذكرتُ في بداية هذه السورة أنها تتحدث عن غلبة الإسلام ثانيةً، حيث بين الله تعالى أنه سيأتي على الإسلام أيام المصاعب والمحن في الزمن الأخير، ثم يهيئ الله ظروفًا وأسبابًا ستؤدي إلى انتصاره مرة أخرى، وهذه الآيات تدعم دعواي هذه، حيث أخبر الله تعالى فيها المسلمين أن لا داعي لليأس عند غلبة الكفر والفساد في ذلك العصر، لأنه عندما تندلع الحروب بين الناس بشدة، فيحاولون تدمير بعضهم البعض وتسقط القوى الكبرى، فإننا سنكتب الغلبة في هذه المواجهة المادية للذين هم أكثر عتادا ماديًا، ولكننا لن نبالي بهم مطلقا عند المواجهة الروحانية، فلن نكتب الغلبة إلا للذين تكون كفة حسناتهم راجحة. ما دمنا لن نكتب النصر في المواجهة المادية إلا للشعب الذي هو الأكثرُ عتادا ماديًا، فكيف يمكن أن نكتب النصر في المواجهة الروحانية لَمن هو أقل عتادا روحانيا؟ إن المبدأ نفسه يعمل في الحالتين، فكما أن رجاحة الكفة تضمن النجاح في المواجهة المادية، فكذلك لن يُكتب النصر إلا لأمة تكون كفتها راجحة في المواجهة الروحانية وتكون أكثر عتادا روحانيا، ولن تنتفع الأُمة التي هي أقل عتادا روحانيا.

لا شك أنه قد وردت هنا ﴿خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ مقابل ﴿ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، مما يعني أنهم سيملكون الموازين، لكنها أقل مما عند الآخرين، ولكن الله تعالى قد بين في آيات أخرى أن الكافرين لن يملكوا أي وزن إذ قال ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾(الكهف:١٠٦)، وحيث إنه ستكون هناك أمة تملك عندها عتادا روحانيا بكثرة، بينما تفتقر أمة أخرى إلى العتاد الروحاني كلية، فسوف ترجح كفة الذين تكون قلوبهم عامرة بحب الله تعالى ويحظون بقربه تعالى، أما الذين تكون موازينهم قليلة أو لا يكون عندهم الوزن أصلا، فتخفّ كفتهم. وكأنه ستقع أولاً المواجهة المادية التي سترجح فيها كفة الذين يكونون أكثر عتادا ماديا، وتخف كفة الذين هم

أقل عتادا، ثم تظهر نتيجة المواجهة الروحانية على هذه القاعدة نفسها.. أي أن الذين يكونون أكثر روحانية وتقوى وورعا ساعين ليل نهار لرفع اسمه وطاعة أوامره ﷻ، فسوف تُكتب لهم الفتوحات، أما الذين قلّت أسبابهم الروحانية أو يفتقرون إليها كلية، فلن ينالوا نصيبا من نصرة الله.

باختصار، لن ينعم بالراحة في ذلك العصر إلا نوعان من الناس: إما أولئك الشعوب التي ستعمل بجدّ وكفاح وتتوفر لديها أسباب مادية، أو الأمة التي تكون محبوبة عند الله تعالى، أما الذين تكون موازينهم المادية خفيفة أو لن تكون عندهم الأسباب المادية مطلقا فأمُّهم هاوية أي يكونون في عذاب، وأما الذين يفتقرون إلى الأسباب المادية ولا يكونون من أحباء الله تعالى فسيُدمَّرون. وكأنه تعالى يقول إن من يملكون العتاد المادي أكثر ينتصرون أولاً، ثم ترجح كفةُ الذين لا يباريهم أحد فيما يتعلق بالأسباب الروحانية.

ولما كان واردًا أن يساور البعض شبهة بشأن الذين ينتصرون في المواجهة المادية فيقول إنهم انتصروا لكونهم مؤيَّدين بنصر الله، فلذلك استعمل الله هنا كلمة ﴿ثقلت﴾ وكلمة ﴿خفت﴾، ليبين أن انتصارهم لن يكون نتيجة تأييد الله تعالى، إنما سببه كونهم أكثر عتادا من خصومهم. إذ لو كان نصر الله تعالى حليفًا لهم، فكان ينبغي أن ينتصروا في المواجهة الروحانية أيضا، ولكن هذا لن يحدث، بل إن الأمة المنتصرة في المواجهة المادية بسبب كثرة عتادها سوف تنهزم هزيمة نكراء في المواجهة الروحانية، أما الذين يبدون ضعفاء من الناحية المادية فإنهم سينتصرون في هذه المواجهة الروحانية لكثرة عتادهم الروحاني. وكما قلت من قبل إن قوله تعالى ﴿خَفَّتْ مَوازِينُهُ﴾ يعني في الحقيقة أنه لن يكون عند الأمة المنتصرة في المواجهة المادية أي وزن روحاني يساعدهم، إذ قال الله تعالى في موضع آخر ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

باختصار، لن ينتصر في المواجهات المادية إلا الأمة الأكثر مادية، ولن تنتصر في المواجهة الروحانية إلا الأمة التي هي أكثر أسبابا روحانية. وهذان قراران لا رادَّ لهما، فإذا ظهر أحدهما فعليكم أن تتوقعوا ظهور الثاني قريبا.

بعد ذكر الأسباب الأساسية للرقي والانحطاط يبين الله تعالى الآن كيف يكون مصير القوم الذين تكون موازينهم خفيفة، فقال ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾.

لقد ذكرنا عند شرح الكلمات أن من معاني الهاوية حالة الزوال والانحطاط، فالمراد من قوله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أن أُمّه حالة الانحطاط، بمعنى: يكون فيه بذرة الانحطاط، فكما أن الأم تكون سببًا لاستمرار النسل كذلك لن يبقى الزوال منحصرا في ذات هذا الإنسان، بل سوف ينتقل إلى أجياله أيضا. الواقع أن الزوال نوعان: أولهما ما يختصّ بالقوم أو الفرد، وثانيهما ما يكون كالبذر، فيصيب الفرد أو القوم بنفسه ثم ينتقل إلى أجياله القادمة أيضا. وقوله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ إشارة إلى النوع الثاني من الزوال، حيث بين الله تعالى أنه كما تلد الأم أولادا، كذلك الأمة التي خفَّت موازينها سوف تزداد انحطاطا باستمرار.. أي أن الأمم التي سيُنـــزل الله تعالى عليها هذا العذاب ستأخذ في الانحطاط المطرد.

ومن معاني قوله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أن أُمَّه تثكله وتبكيه يومئذ.. أي أنهم سيُدمَّرون كليةً، حيث يقال: ثَكِلَتْك أُمُّك، كما تعني الهاوية الثاكلة. لا شك أنه إذا مات المرء، بكاه أبناؤه وبناته وزوجته وغيرهم، ولكن إذا قيل للمرء: ثكلتك أمك، فهو دعاءٌ إلى موته المبكر غير الطبيعي؛ ذلك أن المرء عندما يموت موتًا طبيعيًا بعد قضاء عمره الطبيعي يكون أبواه قد تُوُفيا، فلا يمكن أن يبكيا عليه، وإنما يبكي عليه زوجته وأبناؤه، ولكنه إذا مات مبكرًا فيكون أبواه حيينِ فيبكيانه. إذن، فالمراد من قوله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أنهم يموتون موتًا غير طبيعي، ويُبادون. كما كان موت الشعبين الياباني والألماني غير طبيعي في هذه الحرب العالمية؟! إن حياة الشعوب تمتد إلى قرنين أو ثلاثة أو أربعة قرون، أما هذان الشعبان فكان موتهما مصداقًا لقول الشاعر بالأردية:

پھول تو دو دن بہارِ جانفزا دکھلا گئے
حسرت ان غنچوں پہ ہے جو بن کھلے مرجھا گئے

أي أن الأزهار قد أظهرتْ بتفتُّحِها الربيعَ الساحر بضعة أيام، ولكن يالحسرة البراعم التي ذبلت قبل أن تتفتح.

لقد سُحقت هذه الشعوب وهي تحلم بالرقي. لذلك يخبر الله تعالى هنا أن أُمّة هذه الشعوب ستبكيها على موتها غير الطبيعي.

وقد ذكرتُ من قبل أن أُمَّ الدماغ أو أُمَّ الرأس هي الجلدة التي تجمع الدماغ، وعليه فقوله تعالى ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ يعني أن الهاوية ستحيط بهم من كل ناحية، فلن يجدوا سبيلا للنجاة والرقي، بل يرون الهلاك والدمار من كل طرف وصوب، كأم الدماغ التي تغطيه من كل جانب.

ومن معاني قوله تعالى ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أن الهدف الأساس من نـــزول العذاب أن يُصلح العباد ما بأنفسهم ويمتنعوا عن المعاصي، وليس أن ينتقم الله منهم، فكما أن الطفل يدخل في رحم أمه في صورة نطفةٍ ويبقى هناك في ظلمات ثلاث لينموَ ويرتقي ثم يخرج منه، كذلك إنما ينـــزل عذاب الله على العباد لإزالة أدرانهم وإصلاح ما بأنفسهم في ظلمة العذاب ليحظوا برضا الله تعالى ويدخلوا في عباده المقربين في نهاية المطاف.

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١١﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

حامية: حَمَى الشيءَ من الناس يحيمه حَمْيًا وحِميةً وحِمايةً: منَعه عنهم. وحمِي من الشيء يحمَى حَمِيّةً: أَنفَ أن يفعله. وحمِيت الشمس والنارُ حَمْيًا وحُمِيًّا وحُمُوًا: اشتدَّ حَرُّهما. وحَمِيَ عليه: غَضِبَ (الأقرب). فقوله تعالى ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.. أي أنها نار شديدة الحر.

التفسير: قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ يعني: كيف تعرفون حقيقة الدمار الذي نتحدث عنه! بمعنى أنه دمار شديد تعجز الكلمات عن وصفه، فهو نار شديدة الحرارة. ولا جرم أن هذا الوصف ينطبق على القنبلة الذرية تمامًا، لأنها تُولّد

حرًّا شديدا يحرق الناس لأميال وأميال، حتى إنها تغيّر بِنْيَة جسم الإنسان بتأثيرها المدمر. لقد أعلن اليابانيون أنهم قد عالجوا جرحى القنبلة الذرية بكل طريق ممكن ولكنهم لا يتماثلون للشفاء، ويبدو أن خلايا أجسادهم قد تغيرت. هناك مائتا ألف جريح خلّفتهم القنبلة الذرية لا يتماثلون للشفاء رغم مختلف أنواع العلاج. ويقول أحد العلماء: حيث إن خلايا أجسادهم قد تغيرت، فقد يولد في نسلهم مَن ليس له أعين أو آذان أو له عشر عيون أو خمسة رؤوس أو ست أيدٍ أو أربع أرجل، أو له يدان ولكن لا رجل له، وله أرجل لكن لا يد له، أو قد يولد عندهم أطفال ليسوا أناسا بل يشبهون دويبة تسمى" أم أربعة وأربعين"، ذلك لأن خلايا أجسادهم قد تعرضت لتغييرات كثيرة. هذا رأي عالم من العلماء، لكن واقع الأمر الذي يعترف به اليابانيون هو أنهم ظنوا أن هؤلاء سوف يُشفون بالعلاج، ولكن أجسادهم لم تتأثر مع علاجهم بكل سبيل، لقد تغيرتْ تغيرًا لا ينفعهم معه دواء.

ومن معاني قوله تعالى ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أنها نار غاضبة، ومعلوم أن النار لا تغضب بنفسها، وإنما هي إشارة إلى شدّة حرها. إذن، فقد نبه الله تعالى الناس هنا ألا يظنوها نارا عادية، بل هي نار هائلة، وكأنها تهاجم الناس في غضب شديد. وقد قال الله تعالى في صفة نار جهنم ﴿تَكاد تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ﴾، وهذا هو وصف هذه النار الحامية أيضا، إذ تكون أشدَّ حرًّا من النار المادية العادية بآلاف المرات. لقد قلت إنها أشدُّ حرًّا منها بآلاف المرات بينما ورد في الحديث أنها أشد منها بسبعين ضعفًا، ذلك أن عدد السبع والسبعين يُستعمل أحيانًا للمبالغة لا لبيان العدد فقط، والواضح أن الزيادة لا تنحصر في السبع أو السبعين ضعفًا، فثبت أنها إشارة إلى المبالغة والزيادة.

باختصار، إن القارعة عذاب قد ظهر في العصر الحاضر بصورة القنبلة الذرية والتي قد ظهرت نتائجها المدمرة اليوم في العالم، لكنها مجرد البداية والخطوة الأولى فحسب، ولسوف تُخترع المزيد من الأسلحة الفتاكة ثم المزيد منها حتى تدمِّر بها الشعوبُ الأوروبية نفسَها. وكما يقال بلغتنا إن ضربة واحدة من الحداد كمائة ضربة من الصائغ، كذلك إن الهجمة الأخيرة تكون من الله تعالى، فينتصر القوم الذين تكون أعمالهم ذات وزن حقًّا، فتُكتب لهم الغلبة والحكم.